الجواهري في النجف.. الشعر و الفقه

المتمرد الاول

٢-٢

فالح عبد الجبار

عصر جديد

دخل الجواهري في يفاعته عصرا جديدا كان يتلمس بعض معالمه حسياً دون ان يعيه إلا في وقت متأخر. لنتذكر ان الجواهري ولد بعد رحيل المفكر المجدد جمال الدين الافغاني بعامين او ثلاثة، وقبل رحيل الكواكبي (١٩٠١) ومحمد عبده (١٩٠٤) ببضع سنوات، فهو اذن في توسط بين هؤلاء. ويرمز هذا التوسط في الميلاد الى فترة خصبة، فترة تحديث الدين في اكبر اتصال (واحتكاك) بين الغرب والشرق. يقال ان وعي الاختلاف أداة للتقدم الاجتماعي، يخرج بها الفكر البشري من العماء الارسطي (chaos الى العقل (الناظم Logos).عاصر الجواهري "وعي الاختلاف" هذا بكل امتلائه. تلمست النجف آثار عصر الطباعة والتلغراف، مثلما تعرفت على ثقافة العقل مقابل النقل، والدولة المركزية الحديثة، بدل نظام الملل، والنص المطبوع بدل المخطوطات المدونة، والانفتاح العالمي بدل الروح المحلية، المنغلقة، الضيقة. ولعل ابرز تحول وخز عين الجواهري هو انحسار المعرفة الدينية، او بروز ازدواجية المعرفة، مع ما يرافق ذلك من احتدام اجتماعي وفكري، لعل بعض معالمه ان الطبقة التي أريد له الدخول في عدادها كانت تفقد مركزيتها المطلقة، فيما كانت شخصية المثقف الدنيوي، الشاعر والكاتب، في صعود بيّن.

لنأخذ هذا التحول في بعض وجوهه. معروف ان المرجعية الدينية الممركزة تأسست في النجف على يد المدرسة الاصولية بين مطلع ومنتصف القرن التاسع عشر. ثمة خلاف بين المؤرخين وعلماء الاجتماع حول نقطة المبتدى. هناك من يسند التأسيس الى الشيخ مرتضى الانصاري (ت ١٨٦٤) (كما هو الحال مع المؤرخ عباس امانات، او عبد الهادي الحائري)، او الى سلفه محمد حسن النجفي (جد الجواهري). وهناك من يرى ان تمركز المرجعية تبلور قبل ذلك على يد تلاميذ محمد باقر اكمل البهبهاني (١٧٠٤– 1791)الذي يعود اليه الدور الاساس في إحياء المدرسة الاصولية.

أياً كان الحال، فان نشوء مركز او مؤسسة المرجعية يعبر عن قمة تطور طبقة الفقهاء، ومنعطفا في تحديث المؤسسة الشيعية.

اعتمدت طبقة الفقهاء، هنا كما في مجالات اخرى، على اسس عديدة اولها احتكار حق تفسير المقدس، سواء على اساس التخصص المعرفي، او المنحدر الشريف، ام الاثنين معاً، مما يوجب على العوام، بل حتى طلاب العلوم الدينية المبتدئين، تقليدها واتباعها. وثانيها انها اجازت ادارتها للموارد المقدسة من خمس وزكاة، علما ان التصرف بهذه الموارد يعود للإمام وحده، حامل الشرعية الدينية والسياسية. فجاء التجديد الفقهي (منذ زمان الحليين، المحقق الحلي، والعلامة الحلي) ليفتح باب الاجتهاد في سبل التصرف بهذه الموارد نيابة عن الإمام. ثالث أسس المرجعية هو وجوب تقليد الأعلم، الذي يتطلب بدوره قياس المعرفة كماً بعد تمييزها نوعاً، ما يخلق تراتبية معرفية وسط الفقهاء نجدها ماثلة حتى في مؤسسات التعليم الحديث.

ورابع أسس المرجعية المأسسة هو احتكار التعليم الديني، علما ان التعليم الديني في عالم الاسلام منذ نشوء اول مدرسة على يد الطوسي (القرن الحادي عشر) حتى نشوء المدارس النظامية (الشافعية – السنية على يد السلاجقة ببغداد) وصولا الى اوائل القرن العشرين، كانت الحاضنة لاعداد المتخصصين المطلوبين للمجتمع، من قضاة، وائمة صلاة، وكتاب عقود، وفقهاء، ومحتسبة في الاسواق، ونحاة، ومدرسين، بل حتى حكماء (اطباء).

كان ذلك الاحتكار يستمد قوته من الموقع المركزي للثقافة الدينية باعتبارها الشكل الأسمى والاول والاخير لكل معرفة.

غير ان عملية معاكسة بدأت تمور وتتعاظم نتيجة الاحتكاك الحضاري بالغرب، واحتدام الحاجة الى تحديث الشرق، وبالذات تحديث مؤسسات الادارة واقامة الجيوش الدائمة. أدى نشوء المدارس الحديثة المتخصصة (للجيوش الدائمة بادئ الأمر –في اسطنبول والقاهرة وطهران) الى نشوء ازدواجية: انشطار المعرفة الى دينية ودنيوية.

وترسخ هذا الانشطار بنشوء تقسيم عمل اجتماعي جديد (حديث) قوامه الضباط والمهندسون والاطباء والمترجمون، والاداريون، وما شاكل.

فقدت المدرسة الدينية صلتها بتقسيم العمل الحديث، أما تقسيم العمل القديم التقليدي، فقد تراجع باطراد. أدى ذلك الى تضاؤل مركزية المدرسة الدينية، وتقلص مركزية الفكر الديني في عالم المعرفة. تجلى ذلك في انخفاض طلاب المدارس الدينية في عموم البلدان العربية، ولم تكن النجف استثناء بأي حال.

بموازاة ذلك اخذت موارد طبقة رجل الدين في التناقص، فالخمس والنذور والكفارات، وموارد الاوقاف، راحت تتضاءل لأسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية.

لقد جاءت مساعي دفع الجواهري للانتماء الى طبقة الفقهاء في فترة خروج هذه الطبقة من عصرها الذهبي، وهو خروج سريع، عاصف، ومؤلم احيانا.

وتلمس الجواهري هذا الواقع، واقع افول الطبقة المقدسة وانشطار الثقافة، بصورة حسية، عفوية، كان يرى فيها الى "الشاعر"، كمثقف دنيوي، هو يرقى الى مرتبة "الفقيه" كمثقف ديني، والى تساوي منزلة هذين في خياله الطري، الغض.

هذا هو العامل الاول الذي مهد لمحمد مهدي الجواهري التمرد على الانتماء الى الطبقة الدينية.

اما العامل الثاني، فهو إقصاء فرع بيت والده عن رياسة العائلة الجواهرية رغم تقدم والد الشاعر، على سواه، في امور الفقه، ما اوقع العائلة في فقر موجع.

أيقظ هذا الاقصاء في ذهن الشاعر الجنيني محمد مهدي الجواهري، ذلك الحس النقدي ازاء طبقة رجال الدين. فكان يلحظ، مكتويا، ان مبدأ الأعلمية، الذي أعلى الفقهاء الاصوليون من شأنه، وأرسوه اساسا للمرجعية، كان مجرد مبدأ مثالي في عالم التنافس الدنيوي، بين بيوتات وافراد على الرياسة، تنافس تلعب فيه العلائق، والمداهنات، والمصالح، دورا أرأس، إن لم يكن الدور الأرأس. وكان الجواهري يرى ان أباه كان أحق وأجدر، فقهيا بالرياسة الدينية، لكن مثاليته اوردته موارد البؤس فالردى.

أما العامل الثالث لخيار الجواهري في ان ينسل بعيدا عن عالم الفقه الى رحاب الشعر والثقافة الدنيوية، فهو قوة المؤثرات الثقافية الحديثة. لقد كانت طبقة الفقهاء تحتكر المعرفة الدينية وتفرضها شكلا أوحد للمعرفة. وكانت علاوة على ذلك، تحتكر مصادر هذه المعرفة: المخطوطات. ويذكر الجواهري حيرته واضطراره الى استجداء كتب التراث من المكتبات الدينية العائلية لينهل منها ما يريد.

جاءت الطباعة الحديثة لتكسر احتكار المخطوطات، مثلما جاءت الصحافة الحديثة لتنقل الافكار الجديدة، وتروجها، كاسرة ضيق الأفق المحلي للنخب الثقافية، المتناثرة في المدن المتباعدة. كانت المجلات القادمة من القاهرة وبيروت ("المقتطف"، "العرفان"، وما شاكل) تفتح عالما رحبا يتجاوز الحدود المحلية بكل المعاني، مثلما كانت الافكار الحديثة لرواد الاصلاح، مثل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي والنائيني تكتسح ساحة الفكر مقترنة بانقلابات دستورية هزت المياه الراكدة للفكر الاجتماعي، في ثورة المشروطة الايرانية عام ١٩٠٦ وانقلاب الاتحاد والترقي العثماني في ١٩٠٨، ذكر الجواهري، ان هذين الحدثين هزّا النجف هزاً، وانقسمت المدينة، عموديا، الى مؤيد للمشروطة (الدستور) ومؤيد للمستبدة (الحكم المطلق)، وبلغ الانقسام حدا ان اطفال الاحياء كانوا يمثلون في لعبهم "مشروطة ومستبدة"، فينقسمون الى فريقين متشاحنين، بدلا من لعبتهم السابقة "عسكر وحرامية!".

فتح هذا المناخ عوالم النجف على رحاب العالم، وكان اول "التقدميين" فيها عبد العزيز، الأخ الأكبر للجواهري، وراعيه، فهو من انصار المشروطة، وداعية للحداثة. هذه الاحاطة بمجلات "المقتطف" و"الهلال" (مصر) و"العرفان" (لبنان)، نقلت الجواهري اليافع من ماضي التراث بفقهه وبلاغته وبيانه الى حاضر الفكر، فنراه يقرأ داروين (عبر سلامة موسى)، مثلا، ويلتهم النتاجات الحديثة، رواية او بحثا.

ويبدو ان النجف اتصلت بهذا النهوض في تشوف جامح، لتعمق متناقضاتها كموئل للثروة والفقر، التقليد الغابر والحداثة الجيّاشة، الروح العالية الشمولية للاسلام والروح الضيقة للمحلة والأسرة. ويقول الجواهري "اثر في هذا الجو الثقافي المجدد وعجل في انطلاقي خارج الجو النجفي التقليدي".

أما العامل الرابع (والاخير) في تحول الجواهري فسياسي، ويتعلق بالمبدأ الحديث الناظم لتأسيس الأمم، أي مبدأ القوميات. ولندعه يشرح هذا الامر بنفسه:

"دخلت الخلافة العثمانية طور السقوط بما كانت تقوم عليه من إنكار خصائص وكيانات كل القوميات المنضوية تحت قبضتها... هذه الحركات المنتصرة حفزت المشاعر الوطنية والقومية... وخاصة لدى الشباب العربي المتنور، لكن أئمة الدين في كثير من انحاء العراق لم يستوعبوا جيدا مغزى هذه الحركات التحررية وخلفياتها ولم يتفهموا اوضاع هذه الدول المستعبدة، (و) اكتفوا... بمجرد بريق خداع... مجرد ان الخلافة العثمانية تدين بالاسلام، ولمجرد ان المتحالفين عليها كفرة" (ذكرياتي ص ٩٤).

يصعب القبول بحكم الجواهري هذا، فقد لعبت النجف دورها الأبرز في ثورة المشروطة الايرانية، لتذود عن النظام الدستوري، أي لتقف مع تيار التحديث السياسي. ولا يزال كتاب حسين النائيني "تنبيه الأمة وتنزيه الملة" من ابرز وأهم الكتابات النظرية السياسية في ذودها عن النزعة الدستورية الحديثة.

لعل الجواهري يخلط هنا بين معرفة فقهاء مطلع القرن العشرين بمبدأ القوميات، والنظم السياسية الحديثة، وبين تحالفهم مع العثمانيين بوجه زحف الجيوش البريطانية.

والمعروف ان فقهاء النجف نادوا بنظام ملكي دستوري يقوم عليه ملك عربي مسلم. وبرغم ان جل الفقهاء يتحدرون اثنيا من ايران الفارسية، فان مناداتهم بعروبة الملك المقبل واسلامه، ينطوي على ادراك واضح لمبدأ الاثنيات الحديث.

أياً كان الحال، فان هذه "الاعتراضات" او "النقدات" على بعض فقهاء عصره كانت تشي بقطيعة وانقطاع عن جل الطبقة الدينية النافذة. حتى ثناؤه الشحيح على شيخ الشريعة سيد ابو الحسن، او الشيخ كاظم الخراساني، عميد الدستورية الحديثة، او الشيخ الشيرازي صاحب الفتوى بثورة العشرين كان دالا. (ذكرياتي، ص ٧٨– ٧٩). وهو يكني الخراساني بأبي الاحرار والشيرازي بالثائر، والإمام سيد ابو الحسن بالإمام الجليل. لكنه اتخذ من هذه النماذج اللامعة معيارا لنقد سواهم، فالممدوحون هم، في نظره، الاستثناء الخاص.

اكتشف الجواهري مكانة الثقافة الدنيوية مقابل الثقافة الدينية: "بدأ دور جيل جديد لا تشفع له الالقاب ولا الزعامة الموروثة) (ذكرياتي ص ٧٩).

واكتشف ايضا الوسائل الحديثة للنشر، الصحيفة، والوعي الجديد: الدولة الحديثة في العاصمة بغداد.

ويوم هاجر الى بغداد، بعد ان نشر فيها قصائد تباعا منذ ان كان في الثامنة عشرة من العمر، كان ذلك خاتمة لمرحلة كاملة، وبداية لمرحلة جديدة، يخرج فيها الجواهري من عالم النجف الصغير، الى عالم بغداد الفسيح. لقد غادر محيط الفقه والمنابر، الى محيط الطبقة السياسية الجديدة في بغداد.

لقد قدمت له هذه الأخيرة وسائل صعوده السريع: الصحيفة المطبوعة، واسعة الانتشار، بدل المنبر الشخصي المحدود في النجف، والحركات الراديكالية بدل حركات التقليد، وجماهير راديكالية هادرة في المدن، بدل مئات المستمعين في المناسبات الشعرية المحلية في النجف، أي قدمت له كل ادوات الانتشار والفعل الثقافي، فارتقى المدارج سريعا، متجاوزا حدود المجد الذي كانت تعده به طبقة الفقهاء.

غير ان عدوى اضطراب وتقلقل علاقة الجواهري بالطبقة المقدسة انتقل الى علاقته بالطبقة السياسية. فكان يتوق الى الانتماء اليها، ويتمرد عليها. لقد كانت حيرة الجواهري بين المقدس والدنيوي، بين الفقه والشعر، تشبه حيرة جوليان سوريل بطل ستاندال في "الاحمر والاسود" الذي كان حائرا بين مسوح الرهبان، وبزة العسكر، باعتبار الأثنين رمز القوة الاجتماعية. اما علاقة الجواهري بالطبقة السياسية العراقية الصاعدة، ممثلة بالبلاط، وبكبار الوزراء والاعيان، عهد ذلك، فكانت اقرب الى علاقة بلزاك بطبقة النبلاء الفرنسية: فهو يعشق هذه الطبقة، ويعتبر الانتماء اليها أسمى ما في الوجود، ولكنه، من ناحية اخرى يدرك عمق تفسخها، وسيرها نحو التدهور والافول.

لقد ركن الجواهري الى سطوة الشعر لتوكيد تفوقه على عالم الفقهاء ، كانت سطوة الشعر رمزا للثقافة العلمانية، و الصحافة رمز العصر الحديث وأدواته المبكرة. اما بازاء الطبقة السياسية فلم يكن يملك ادوات تفوق كهذه. فوسط هذه الطبقة المولّدة، كانت القيم التقليدية (المكانة الدينية والنسب) تلعب دورها بالتظافر مع القيم الحديثة: الانجاز، الثروة، وما الى ذلك.

وكانت مواقع الجواهري في هرم السلطة (البلاط، البرلمان) او مصادر عيشه (الراتب، الاعلانات الصحفية) خاضعة لتلاعب الطبقة السياسية في العهد الملكي التي أحبها ومقتها بطريقته المعهودة. ولكن تلك قصة اخرى.

براثا.. وضياعي.. ثانية..!

د. ماجدة النصراوي

الصرخة
بين جبال
ما جدواها
غير صداها
وفضاء يفتح فاها؟
.....
منحوت
على صخرة حرماني
ومغروس في
كأوتاد المي
لأنك دمي
فانت الابقى
والانقى
والمتوالد أبدا
في كل ركن من بيتي
.....
ايها البحر..
الممتد فسيحا
انا الرأس
المولود ذبيحا
انا الممتد معك
حتى شاطئ حواء
حيث يرفض آدم
تفاحتها
ولا اعلم..!
ان كنت انا
ما زلت هناك
ام انني حقاً
جئت هنا...!!
.....
التقاها..
بعد ان عاودت النجوم
منابعها
وشدت الشموس
رحالها
والاقمار
التقاها..

في فضاء عارٍ
من نفسه....!!
.....
اعتدت
ان لا انساه
فهو الجسر
بين ضفتي القلب
وعليه تعبر
كل حكايات الحب
اعتدت
ان اكون
انا الجذوة
وهو احتراقي اللا منتهي
انا الشهوة
وهو اشتياقي المزدهي
بسنين عجاف..!
اعتدت
ان اكون
اخضرار النهر
وهو الجفاف اللائذ
بشفتي!
.....
مزروع
على جسدي الرماد
يبحث عن ريح
تذروه
ربما كي ينتهي
إلى نسمة
او زفير امرأة
او طيف حبٍ!

مزروع
على أرض الازل
يتأرجح بين اللا جدوى
والامل
ان اطل برأسي
واجني

كؤوس العسل
.....
.....
.....
.....
.....
واسمع نشيج براثا:

"الحياة
بعد موت
ما جدواها
غير بكاها
على ماضٍ جف
في منفاها..؟!"

متابعات

لجنة الملكية الفكرية تعقد اجتماعها الاول

عقدت لجنة الملكية الفكرية التي شكلتها وزارة الثقافة في الثالث عشر من آب الحالي اجتماعها الاول في مقر دائرة العلاقات الثقافية بديوان الوزارة.

رأس هذا الاجتماع السيد عقيل ابراهيم المندلاوي المدير العام للدائرة وضمت عدداً من المستشارين القانونيين في الوزارة.

واستهل السيد عقيل المندلاوي في بداية الجلسة كلامه بالقول: نظراً لأهمية الملكية الفكرية بالعراق وانسجاماً مع التطور الحاصل في الدول المتقدمة بالعالم التي تضمن للأنسان كافة حقوقه المشروعة وتوفر الحماية القانونية لكل ابداعاته الفكرية، ولكون الشريعة الاسلامية تدعو للمحافظة على حقوق الانسان وتحرم الاعتداء والتجاوز عليها، وان الانظمة السابقة في العراق لم تول الاهتمام الكافي بهذا الجانب ولم تواكب ما حدث ويحدث من تطورات حول العالم ولهذا فقد اهتمت الوزارة بهذه القضية جدياً.

واضاف ان وزارتنا قد وضعت خطة استراتيجية وبرنامج عمل لتفعيل موضوع الملكية الفكرية على جميع الصعد تشمل اعداد مشروع لقانون جديد لها، واعادة انضمام العراق للمنظمات الدولية التي تولي اهتماماً كبيراً لهذه المسألة الساخنة.. وتسوية كافة الديون العالمية للملكية الفكرية (WIPO)والتي تعد من الوكالات الدولية المتخصصة التابعة للامم المتحدة ولكوننا مقبلين على الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية (W.T.O)وأن من ضمن شروط الانضمام اليها وجود قانون عصري ومتطور للملكية الفكرية في العراق.

واوضح ان هذه اللجنة شرعت منذ اللحظات الاولى لتشكيلها بجمع جميع البريد الخاص بهذه القضية الذي ورد لدائرتي العلاقات الثقافية و دار المأمون للترجمة والنشر والتي تضمنت أكثر من ١١٤ كتاباً شملت دعوات لحضور اجتماعات في مقر المنظمة العالمية للملكية الفكرية التي مقرها في جنيف، ولم يتخذ أي إجراء بهذا الشأن ما فوت فرصة مشاركتنا في جميع الاجتماعات السابقة علماً ان هذه الدعوات تضمنت سلسلة من محاضر اجتماعات عقدت في بعض البلدان العربية الشقيقة والدول الصديقة بالعالم، ومراسلات بشأن اعادة انضمام العراق للمنظمة الدولية المعنية إلا انه مع الاسف الشديد لم تتم اجابتهم لحد الآن لاسباب مجهولة. كما لم تقم وزارة الخارجية العراقية بالرد فيما يخص التفاوض لشطب الديون المترتبة بذمة العراق مع المنظمات الدولية.

واختتم السيد عقيل المندلاوي حديثه بالقول ان اللجنة ستبذل جهوداً مضاعفة واستثنائية ازاء هذا البريد المتراكم والمهمل والذي بدأ بالورود منذ الحادي والعشرين من آيار عام ٢٠٠٣ وحتى الثاني عشر من حزيران الماضي وسنعمل على فتح قنوات جديدة للاتصال مع الدول والمنظمات التي خاطبتنا طيلة الفترة المنصرمة.